نزار قباني

إلى بيروت الأنثى مع حبي

مكتبة زهران
١٥ شارع الشيخ محمد عبده خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥١٤٢٩٥٥

(مقدمة وخمس قصائد)

آه يا بيروتُ.. يا أُنثايَ من بين ملايين النساءْ..

يا رحيلاً برتقاليّاً.. على وردٍ.. وبرقُوقٍ.. وماءْ..

يا طُموحي - عندما أكتُبُ أشعاري - لتقريب السماءْ

نــزار

البحث عن مساحة للكتابة

(مقدمة)

أحمل الزمن المحترق في عينيَّ، وأسافر إليكم.

أحمل بيروتَ قصيدةً مطعونةً على راحة يدي.. وأقدم جسدها للعالم شهادةً ناصعة على عصر عربي يحترف قتل القصائد.

قبل عام تلاقينا..

كان جرحي لا يزال في طفولته، وكان حزني لا يزال يتعلم الكلمات الأولى.

بعد عام، صار جرحي قبيلةً من الجراح، وصار حزني وطناً له مساحةُ الكون.

كنت أتصور أن الحزن يمكن أن يصبح صديقاً، ولكنني

لم أكن أتصور أن يصبح الحزن وطناً نسكنُهُ، ونتكلم لغته، ونحمل جنسيته ككل الأوطان.

قبل عام، كان الفرح ممكنًا، والشعر ممكناً، والنوم في العيون السود ممكناً..

بعد عام، لم يبق لنا شيء..

أخذوا منا الفرح..

وأخذوا منا الشعر..

ومنعونا من النوم في عيون حبيباتنا..

أحمل منفايَ في حقائبي.. وأسافر إليكمْ..

حين لا تستطيع أن تكتبَ، فأنت منفيّ..

وحين يكون شرطيُّ المرور واقفاً على الورقة التي تكتب عليها، فأنتَ منفيّ..

وحين لا تستطيع أن تقول لحبيبتك «يا حبيبتي» فأنتَ منفيّ.

وحين لا تستطيع أن تحقق الشرط الإنساني، فأنت منفيّ..

وحين يصبح لسانكَ سمكةً متجمدةً في حلقك، فأنت منفيّ.

وحين يصبحُ صوتكَ مادةً كماليةً تدفعُ الرسوم الجمركية، فأنتَ منفيّ..

وحين تصير الحرية مومساً سرّيةً غيرَ مرخّص لها بمزاولة المهنة.. فأنتَ منفيّ..

وحين يقتلونكَ إذا كنتَ مؤمناً.. ويقتلونك إذا كنتَ مُشْركاً.. ويقتلونكَ إذا قلتَ (أشهد أن لا إله إلا الله).. ويقتلونكَ إذا لم تقلها.. فأنت منفيّ..

وحين يذبحونك لمجرد أنهم يبحثون عن أحمر شفاه مثير يصبغون به شفاه صاحباتهم.. فأنتَ منفيّ..

كل واحدٍ منا يحمل منفاه في داخله..

ووحدهم المجانينُ والشعراء هم الذين يحسنون الكلامَ عن منافيهم..

أحمل بيروتَ نجمةً مضرّجةً بدمها.. وأسافر إليكم..

بيروت.. بيروت.. بيروتْ..

هل يمكن أن أتلفظ باسمها، دون أن تخرجَ دمعةٌ من العين، ويرتعش عصفورٌ في القلب؟

بيروتكم وبيروتي..

حبكمْ وحبي..

تاريخكم وتاريخي..

خزانة أحلامكم، وخزانة أحلامي..

ماذا بقي من بيروت؟

ماذا بقيَ من بحرها، ورملها، وصدفها، وقرميدها الأحمر، وأمطارها المجنونة؟

ماذا بقي من هذه الفراشة البحرية الجناحين، الخرافية الألوان؟

ماذا بقي من صَبَوات الأخطل الصغير، ونمنمات أمين نخلة، وصلوات فيروز؟

ماذا بقيَ من بجعتي البيضاء سوى ريشها الفضي المتناثر، وسوى دموعها الممتزجة بمياه البحر الأبيض المتوسط؟ آهِ.. ما أصعبَ موتَ البجع!!

هذه الأمسية الشعرية وُلدتْ ولادةً قيصريهْ..

كان من المفترض أن تحدث الولادة في الربيـع، فحـدثت في الصيف..

وكان الأمل أن تتم الولادة دون ألم.. ودون اختلاطـات.. ودون شق بطن..

ولكن الأمور جرت كلها خلافاً لتوقعات الأطباء..

وها أنذا أقف أمامكم بكل ضعفي وشحوبي، لأخبـركم أني لا أعرف شيئاً عن الطفل الذي خرج من جسدي..

لا أعرف ما لونُ عينيه..

ولا أعرف ماذا أسميه..

ولكن هل هذه الأمسية الشعرية هي حالة خاصة؟

وهل الشعراء هم وحدهم الـذين يلـدون علـى الطريقـة القيصرية في هذه الأيام؟

لا أعتقد.. لا أعتقد..

فكل الولادات في العالم العربي تتم على طريقة فتح البطن.. أو فتح الجمجمة.. أو فتح القبر..

ليس لدينا على امتداد الوطن العربي ولادات طبيعية، لأنه ليس لدينا حمل طبيعي..

لا الشجر يحمل عندنا حملاً طبيعيّاً..

ولا البشر يحملون حملاً طبيعيّاً..

ولا القمر يستدير بطنه في سمائنا بصورة طبيعية..

كل الحالات عندنا هي حالات حمل كاذب.

مثقفونا يحملون حملاً كاذباً..

وأدباؤنا يحملونَ حملاً كاذباً..

وزعماؤنا، وسياسيونا يحملون حملاً كاذباً..

وكشفٌ طبيٌّ سريع على جسد هذا الوطن العربي المتورم، يثبت أن ما بداخله ليس سوى عناقيد حقد.. وأكياس صديد..

منذ أن حصلتْ البلاد العربية على استقلالها في نهاية الحرب العالمية الثانية، وهي لا تعرف إلى أين تذهب.. ومع من تذهب.. ولا تعرف من تتزوج.. ومن تطلق.. ولا تعرف إذا كانت حاملاً أم عاقراً.. ولا تعرف على وجه التحديد إذا كانت ذكراً أم أُنثى..

نحن ضائعو الهوية، لا ننتمي إلى أحد.. ولا إلى شيء.. ولا إلى أنفسنا..

إننا بكل أسف شعبُ المصادفات التاريخية..

فبالمصادفة نُحِبّ، وبالمصادفة ننفصل..

وبالمصادفة ندخل الحروب، وبالمصادفة نخرج منها..

وبالمصادفة نولد.. وبالمصادفة نموت..

نحن أصدقاء الريح تعلمنا منها التذبذب.. وعدم الثبات.

ونحن أصدقاء الموج، تعلمنا منه التناقضَ والانفعال.

غضبُنا ليس له عُمْر. ورضانا ليس له عُمْر.. وحالُنا تتغير حسب الأحوال..

عواطفنا السياسيةُ تتخبط كثعبان صحراوي حسب درجات الحرارة. فمرةً ترتفع حرارتُنا إلى الأربعين.. فنحب بعضنا حبّاً جنونيّاً كما حدث خلال حرب تشرين.. ومرةً تهبط حرارتنا إلى الصفر.. فنتحول إلى زواحف قطبية تعضُّ بعضها عضًّا جنونيّاً.. كما يحدث في هذه الأيام..

اتَّهمْنا الاستعمار بالكفر، فلما تحررنا منه كنا على أنفسنا أشد كفرا..

وتغزلنا بالحرية، فلما رأيناها عاريةً أمامنا.. طار صوابُنا فأكلناها..

حار بنا الفكر البوليسي، فلما أُتيح لنا أن نحكم، كنا أشدَّ بوليسيةً من كل بواليس العالم..

حلمنا بالوحدة العربية الكبرى.. فلما وصلنا إلى النخلة اختلفنا على البلح..

تبجحنا بالدولة العربية الواحدة التي لا تغيب عنها الشمس، فلما حكمنا صارت شمعةٌ واحدة تكفي لإضاءة دويلاتنا الصغيرة كحبة الأسبرين..

هل تريدون أن تتسلوا؟

إذن تعالوا نتفرج معاً على خريطة الوطن العربي.

المدن العربية مجموعة من سيارات السباق تنطلق كلها بعكس السير، ويهشم بعضها بعضاً بسادية لا نظير لها.

وما دام البنزين متوفراً.. والعجلات متوفرة.. والمجانين كثيرين.. فإن سباق الموت العربي مستمر.. ولن يربح في النهاية إلا الشيطان..

كل المدن العربية تشترك في هذا السباق الدموي، إلى أن تتدهور جميعاً. وآخر سيارة انقلبت بركابها، واشتعلت فيها النار، هي بيروت.

أحمل قارورة فيها رماد بيروت..

وقارورة فيها رمادي..

أحمل خرائط طفولتي، ومكاتيب حبيبتي، وسلالم بيتنا

القديم في دمشق، وسجادة صلاة أمي، وسعال أبي، ومحفظة كُتبي المدرسية، وكراسة أشعاري الأولى.. وأبحث عن زاوية من الأرض العربية تكون بحجم ورقة الكتابة..

لا أريدُ أكثر من هذا..

فمن يُعطي سماءً بحجم ورقة الكتابة؟

من يُعطيني الكتابة؟

قد تسألون بكل طيبة قلب:

«.. ولكن ألا تكفيكَ مساحةُ كل هذه السماوات العربية لتكتب عليها قصيدة؟؟..»

وبكل طفولة أجيبكم: «لا.. لا تكفيني..».

فهناك سماءٌ من الحجر لا يُكتب عليها..

وهناك سماءٌ من القصدير لا يُكتبُ عليها..

وهناك سماءٌ من المسامير والخوازيق والأسلاك الشائكة لا يُكتب عليها..

وهناك سماء من الحقد والملح والحموضة.. لا يكتب عليها..

وهناك سماء لا يسمح لك بأن تكتب عليها لا باللغة العربية.. ولا باللغة الصينية.. ولا باللغة الهندوكية.. ولا باللغة السامرية.. ولا بأي لغة من اللغات المتداولة أو المنقرضة..

ربما كانت السماوات العربية طويلة، وعريضة، وممتدة، ومنفرشة.. ولكن الشعر لا يبحث عن الطول والعرض.. ولا عن الامتداد والانفراش.. ولا عن ملايين الكيلومترات، من الزرقة التي تتكرر كقطار لا نهائي من الملل..

إن مشكلة العالم العربي ليست مشكلة جغرافيا..

ليست مشكلة رملٍ وحجارة..

ولكنها مشكلة الإنسان الذي يريدون لـه أن يكـون علـى هيئة الحجارة.. ويريدون لعقله أن يبقى مغلقاً كضريح مـن الحجارة..

من أجل هذا يقتلون بيروت..

لأنها تبدو على الخريطة خيطاً رفيعاً من الماء في صـحراء من العطش..

ولأنها- وهذا هو المهم- تشكل مساحة نادرة للكتابة في بيئة لا تتعاطى حروف الكتابة..

لماذا نحن معقدون من المدن التي تكتب؟..

لماذا نحن متخصصون في اغتيال المدن التي تحمل بيـدها

قلماً.. وورقة.. وتذهب إلى المدرسة؟

كنت أظن أن عقـدة (الماسـادا) عقـدةٌ يهوديـة. فـإذا بـي أكتشف بعد دمار بيروت، أن العـرب أيـضاً يعرفـون كيـف ينتحرون..

كل يوم تنتحر مدينة عربيةٌ على طريقتها الخاصة..

واحدةٌ تموت بالسُّمّ..

وثانية تموتُ بالقهر..

وثالثة تموتُ بالكآبة..

ورابعةٌ تموتُ بالحبوب المنومة..

وخامسةٌ تموتُ من فرط الشراب والتعهُّر..

وابتداءً من غرناطة إلى يومنا هذا، ليس هناك مدينة عربية واحدةٌ ماتت ميتة ربِّها..

وإنما هناك مُدُنٌ وجدت مقتولةً في ظروف غامضة..

ولم تتمكن النيابة العامة من معرفة قاتلها، فسُجلتِ الجريمة ضد مجهول..

إن موت بيروت ليس موتاً طبيعيّاً..

وسقوطها ليس سقوطاً اعتياديّاً يشبه سقوط بنايةٍ من الكونكريت، أو جسر من الحديد..

إن سقوط بيروت يشابه إلى حدٍّ كبير سقوط شمعدان بملايين الشموع.. أو سقوط سنبلةٍ ملأى بالقمح.. أو سقوط سقف كنيسةٍ فوق رؤوس المصلِّين..

قد تكون بيروت امرأةً عاشت حياتها طولاً وعرضاً.. وكان لها ألوفُ العشاق والمغامرات العاطفية..

ولكن هل هذا الذنب يكفي لتذويب جسدها الجميل في

حامض الكبريت؟؟

إننا جميعاً مسئولون عن موت بيروت.

ومن منا كان بريئاً من دمها.. فليرفعْ إصبعه..

صيف عام ١٩٧٦

* * *

يا ست الدنيا يا بيروت

١

يا ست الدنيا يا بيروت..

من باعَ أساوركِ المشغولةَ بالياقوتْ؟

من صادر خاتمكِ السحريَّ،

وقصَّ ضفائرك الذهبيّهْ؟

من ذبح الفرحَ النائمَ في عينيك الخضراوين؟

من شطَّب وجهَكِ بالسكّين،

وألقى ماء النار على شفتيْك الرائعتين

من سمَّم ماءَ البحرِ، ورشَّ الحقدَ على الشطآن الورديّه؟

ها نحن أتينا.. معتذرينَ.. ومعترفينْ

أنا أطلقنا النارَ عليك بروح قبليّه..

فقتلنا امرأةً.. كانت تُدعى (الحريَّه)...

٢

ماذا نتكّلم يا بيروتُ..

وفي عينيْك خلاصةُ حزنِ البشريّهْ

وعلى نهديكِ المحترقَيْن.. رمادَ الحربِ الأهليّه

ماذا نتكلّم يا مروحةَ الصيفِ، ويا وردته الجوريهْ

من كان يفكرُ أن نتلاقى- يا بيروتُ- وأنت خرابْ؟

من كان يفكرُ أن تنموَ للوردةِ آلافُ الأنياب؟

من كان يفكرُ أنّ العين تقاتلُ في يومٍ ضدّ الأهداب؟

ماذا نتكلَّم يا لؤلؤتي؟.

يا سُنبلتي..

يا أقْلامي..

يا أحَلامي..

يا أوراقي الشعريهْ..

من أين أتتكِ القسوة يا بيروت،

وكنتِ برقَّة حوريّه..

لا أفهم كيف انقلبَ العصفور الدُّوريُّ..

لقطةِ ليلٍ وحشيّه..

لا أفهم أبداً يا بيروتُ

لا أفهم كيفَ نسيت الله..

وعدتِ لعصر الوثنيّه..

٣

قومي من تحتِ الموجِ الأزرقِ، يا عَشْتارْ

قُومي كقصيدةِ وردٍ..

أو قومي كقصيدةِ نارٍ

لا يوجد قبلك شيءٌ.. بعدَك شيءٌ.. مثلك شيءٌ..

أنت خلاصاتُ الأعمارْ..

يا حقلَ اللؤلؤِ..

يا ميناءَ العشقِ..

ويا طاووسَ الماءِ..

قومي من أجلِ الحبّ، ومن أجلِ الشعراءْ

قومي من أجلِ الخبزِ، ومن أجل الفقراءْ

الحبُّ يريدُكِ.. يا أحلى الملكاتْ..

والربُّ يريدك، يا أحلى الملكاتْ

ها أنتِ دفعتِ ضريبة حسنِكِ مثلَ جميع الحسناواتْ

ودفعتِ الجزيةَ عن كلِّ الكلماتْ..

٤

قومي من نومِكِ..

يا سلطانةُ، يا نوَّارةَ، يا قنديلاً مشتعلاً في القلبْ

قومي كي يبقى العالمُ يا بيروتْ..

ونبقى نحنُ..

ويبقى الحبُّ..

قومي..

يا أحلى لؤلؤةٍ أهداها البحرُ

الآنَ عرفنا ما معنى..

أن نقتلَ عصفوراً في الفجرِ

الآن عرفنا ما معنى..

أن ندلقَ فوقَ سماءِ الصيفِ زجاجةَ حبر

الآن كنّا ضِدَّ الله.. وضِدَّ الشِّعر..

٥

يا ستَّ الدنيا يا بيروتْ..

يا حيثُ الوعدُ الأوّلُ.. والحبُّ الأول..

يا حيثُ كتبنا الشِّعر..

وخبَّأناه بأكياس المخمل..

نعترف الآنَ.. بأنّا كُنّا يا بيروت،

نحبُّكِ كالبدوِ الرُّحَّل..

ونمارسُ فِعل الحبِّ.. تماماً

كالبدوِ الرحّل...

نعترف الآن.. بأنّكِ كنتِ خليلتنا

نأوي لفِراشِكِ طول الليل...

وعندَ الفجرِ، نهاجر كالبدو الرحَّل

نعترفُ الآن.. بأنّا كنّا أميين..

وكنّا نجهلُ ما نفعلْ..

نعترف الآن، بأنّا كنّا من بينِ القتلهْ..

ورأينا رأسَك..

يسقطُ تحتَ صخورِ الروشةِ كالعصفور

نعترفُ الآنَ..

بأنّا كنّا- ساعة نُفِّذ فيكِ الحكم-

شهودَ الزورْ..

٦

نعترف أمامَ اللهِ الواحدْ..

أنّا كنّا منكِ نغار..

وكان جمالُكِ يؤذينا..

نعترفُ الآنْ..

بأنّا لم ننصفْكِ.. ولم نعذرْكِ.. ولم نفهمْكِ..

وأهديناكِ مكانَ الوردةِ سكّينا...

نعترفُ أمامَ اللهِ العادل...

أنّا راودناكِ..

وعاشرناكِ..

وضاجعناكِ..

وحمّلناكِ معاصينا..

يا سِتَّ الدنيا، إنّ الدنيا بعدَكِ ليستْ تكفينا..

الآن عرفنا.. أنّ جذورَكِ ضاربةٌ فينا..

الآن عرفنا.. ماذا اقترفَتْ أيدينا..

٧

البحر يفتش في دفتره الأزرق عن لبنان

والقمر الأخضر..

عاد أخيراً كي يتزوجَ من لبنان..

أعطيني كفَّك يا جوهرةَ الليلِ، وزنبقة البلدان

نعترفُ الآن..

بأنا كُنا ساديين، ودمويين..

وكنا وكلاءَ الشيطان

يا ستَّ الدنيا يا بيروتْ..

قومي من تحتِ الردمِ، كزهرةِ لوزٍ في نيسان

قومي من حزنِك..

إن الثورةَ تولد من رحمِ الأحزان

قومي إكراماً للغاباتْ..

وللأنهار..

وللوديان..

قومي إكراماً للإنسان..

إنا أخطْأنا يا بيروت..

وجئنا نلتمسُ الغفرانْ..

٨

ما زلتَ أحبكُّ يا بيروتُ المجنونهْ..

يا نهرَ دماءٍ وجواهر..

ما زلت أحبُّك يا بيروتَ القلبِ الطيب..

يا بيروتَ الفوضَى..

يا بيروتَ الجوعِ الكافرِ.. والشبعِ الكافر..

ما زلت أحبُّك يا بيروت العدل..

ويا بيروت الظلم..

ويا بيروت السبي..

ويا بيروت القاتلِ والشاعر..

ما زلت أحبُّك يا بيروتَ العشق..

ويا بيروتَ الذبح من الشريانِ إلى الشريانْ..

ما زلت أحبك رغمَ حماقاتِ الإنسانْ

ما زلت أحبك يا بيروت..

لماذا لا نبتدئَ الآنْ ؟؟

* * *

سبع رسائل ضائعة في بريد بيروت

١

يا حبيبهْ:

بعدَ عامين طويلين من الغربةِ والنفي..

تذكّرتُكِ في هذا المساءْ..

كنت مجنوناً بعينْيكِ..

ومجنوناً بأوراقي..

ومجنونا لأنَّ الحبَّ جاءَ..

ولأنَّ الشعرَ جاء..

كنت أبكي ضَاحكاً مثل المجاذيبِ..

لأني أستطيع الآنَ، يا سيّدتي، أن أتذكَّرَ..

مدهشٌ أن أتذكّرَ..

مُدهشٌ أن أتذكر..

ليس سهلاً في زمانِ الحربِ أن يسترجعَ الإنسان

وجهَ امرأةٍ يعشقها..

فالحربُ ضدّ الذاكرهْ..

ليس سهلاً في زمانِ القبحِ..

أن أجمعَ أزهارَ المانوليا..

والفراشاتِ التي تخرجُ ليلاً من شبابيكِ العيونِ الماطرهْ..

قذفتني هذه الحربُ بعيداً عن محيطِ الدائرهْ..

ألغيتِ الخطَّ الحليبيّ الذي ينزل من ثديك..

نحوَ الخاصِرَهْ..

٢

يا صديقهْ:

عائدٌ من زمنِ اللاشعرِ.. عاري القدمينْ

عائدٌ دونَ شفاهٍ..

عائدٌ دونَ يديْنْ..

إنَّ حربَ السنتين

كسرتني..

كسرت سنبلةَ القمحِ التي تنبتُ بينَ الشفتينْ..

جعلتني عاطلاً عن عملِ الحبّ...

فلم أقرأ مزاميري لعينيْكِ..

ولا قبلتُ عصفوراً غريباً...

أو قصيدهْ...

أفقدتني ذلك الطهرَ الطفوليَّ الـذي يُـدخلني مملكـةَ الله، ويعطيني مفاتيحَ اللغاتِ النادرهْ..

فاعذريني.. إن تأخرّتُ عن الوعدِ قليلا..

فلقد كان وصولي مستحيلا..

وبريدي مُستحيلا..

إنَّ آلافَ الحواجزِ

وقفتْ ما بين عينيْكِ.. وبيني..

أطلقوا النارَ على الحُلمِ فأردوه قتيلا..

أطلقوا النارَ على الحبّ فأردوه قتيلا..

أطلقوا النارَ على البحرِ، على الشمسِ، على الزرع،

على كُتُب الأطفالِ، قصّوا شعرَ بيروتَ الطويلا..

سرقوا العمرَ الجميلا...

٣

يا بعيدهْ:

أيَّ أخبارٍ تريدين عن الشعرِ وعني؟..

أخذوا بيروتَ مني..

أخذوا بيروتَ، يا سيّدتي، منكِ ومنّي..

سرقوا (منقوشةَ الزعترِ) من بينِ يدينا..

سرقوا (الكورنيشَ).. والأصدافَ..

والرملَ الذي كان يغطي جسدَيْنا..

سرقوا منا زمانَ الشعرِ، يا لؤلؤتي،

والكتاباتِ التي تسقُط مثل الكرزِ الأحمرِ من بينِ الأصابع..

سرقوا رائحةَ البنّ..

وأحلام المقاهي.. وقناديلَ الشوارع

ذلك الصوتُ الذي يصدرُ عنّي ليس صوتي..

إنني أكتبُ من داخِل موتي..

أين أنتِ الآنَ.. يا من لم أجدْ في هذه الغابة.. صدراً يحتويني.. غيرَ أنتِ؟..

سرقوا مني طواحيني.. وفُرساني.. وفرشاتي.. وألواني... وأشيائي الصغيرهْ..

واليواقيتَ التي جئتُ بها من آخرِ الدنيا لفستانِ الأميره..

لم أكنْ أعلمُ يا سيّدتي..

أنّ أشيائي الصغيرهْ..

هي أشيائي الكبيرهْ..

٤

يا رقيقهْ:

جاءني هاتفُك اليومَ خجولا مثلَ عطرِ البرتقالِ

سائلاً عني.. وهل أجملُ من هذا السؤالِ؟..

إنني أحيا..

ولكنْ ما الذي يعنيه يا سيّدتي

أن يكون المرءُ موجوداً على قيدِ الحياةِ؟..

إن تُحبيني اسأليني كيفَ حال الكلماتِ

دخلتْ في جسدِ الشعرِ.. ألوف الطلقاتِ..

نحن من عامين.. لم نزهرْ.. ولم نورقْ.. ولم نطرح ثمرْ..

نحن من عامين لم نبرقْ.. ولم نرعدْ..

ولم نركضْ كمجنونين - يا سيّدتي - تحتَ المطر..

نحنُ من عامين..

لم نخرجْ عن المألوفِ في العشق..

ولم نخرجْ على اليوميِّ والعادي..

لم ندخلْ أقاليمَ الغرابهْ..

آه.. كم عانيتُ من داءِ الكآبهْ

آه.. كم عانيت من موتِ الكتابهْ

شنقوني بخيوطِ المفرداتِ

طردوني..

خلفَ أسوارِ اللغاتِ..

أغلقوا في وجهِ حبي الطرقاتِ..

فتّشوني..

لم أكن أحملَ إلا وردةَ الشِّعر..

وحُزني..

وجُنوني..

لم أكن أحملُ - إلا أنتِ يا سيدتي - بين عيوني..

وهذا أرجعوني

كنتِ، يا سيدتي، في موقع الحبِّ..

لهذا لم أكن في جملةٍ المنتصرين..

كنتِ يا سيدتي، في جانبِ الشِّعر.. لهذا..

صنفوني بورجوازياً صغيراً..

وأضافوني إلى قائمِة المنحرفينْ..

لم أكن في زمنِ القبحِ قبيحاً..

إنما كنت صديق الياسمينْ...

٥

يا أثيرهْ:

أينَ أنتِ الآن يا من لم أجدْ عنوانَ عينيك على كلّ الخرائطْ..

أين أنت الآنَ يا من لم أجد آثارَ أقدامِكِ في كلِّ الفنادقْ
لم أعدْ أعرفُ شيئاً عنكِ..
في أيِّ بلادٍ أنتِ؟
ماذا تفعلين اليومَ؟
ماذا تشعرين الآنَ؟
هل ضيّعتِ إيمانَك مثلي بجميع الآلهةْ..
وتقاليد القبائلْ؟.
هل تحبين كما كنتِ؟
وتهتمين بالشِّعرِ كما كنتِ؟
وتشتاقين للشوقِ كما كنتِ؟.
أم أنَّ الحربَ داستْ ورقَ الوردِ.. وأعناقَ السنابلْ؟
بعثرتْنا هذه الحربُ اللئيمةْ..

بشّعتنا.. شوَّهتنا..

أحرقتْ كلَّ الملفّاتِ القديمهْ..

فملايين من الأشياءِ في دخلِنا..

جرفتها الحربُ فيما جرفت.. والسؤالُ الآن هل

في قدرةِ الانسانِ أن يدخلَ في حبٍّ كبيرٍ.. وعلاقاتٍ

حميمهْ؟..

لا تجيبيني.. إذا كانتْ سؤالاتي غريبهْ..

كلُّ ما يشغلُ بالي يا حبيبهْ..

أن تكوني أنتِ في خيرٍ.. وعيناكِ بخيرْ..

٦

أين بيروتُ التي تختالُ بالقبّعةِ الزرقاءِ مثلَ الملكهْ؟

أينَ بيروُت التي كانتْ على أوراقِنا..

ترقصَ مثلَ السمكهْ..

ذبحوها..

ذبحوها..

وهي تستقبلُ ضوءَ الفجرِ مثلَ الياسمينهْ..

من هو الرابحُ من قتلِ مدينهْ؟

ضَيَّعوا بيروت، يا سيّدتي

ضيّعوا أنفسهم إذ ضيّعوها.

سقطت كالخاتمِ السحريِّ في الماء.. ولم يلتقطوها..

طاردوها مثل عَصفورٍ ربيعيٍّ إلى أن قتلوها...

هذه الورديَّةُ الجسمِ التي تلبسُ في معصمِها البحرَ سوارا

كم قطفنا البُنّ من أشجارِ نهديْها..

وحوّلنا جبالَ الثلجِ نارًا...

واكتشفناها رَصيفاً.. فرصيفا..

وبنيناها جداراً فجدارًا...

كم دخلنا بيتها البحريَّ أطفالاً صغارًا..

فلعبنا.. ورقصْنا..

وخرجنا نحملَ الشمسَ بأيدينا..

وأسماكاً.. وخبزاً.. ومحارًا...

فلماذا قتلوها؟

هذه الأنثى التي كانت ترشُّ الماءَ.. في وجهِ الصحارَى؟

٧

آه يا بيروتُ.. يا أنثايَ من بينِ ملايين النساء.

يا رحيلاً برتقالياً على وردٍ.. وبرقوق .. وماء..

يا طموحي - عندما اكتبُ أشعاري - لتقريبِ السماء

أيّ أخبارٍ تريدينَ عن الحبّ.. وعني..

ومكاتيبي رمادٌ..

وأحاسيسي رمادٌ..

سرقوا مني مساحاتٍ من الزرقةِ ليست تستعادْ

ومساحاتٍ من الدهشة ليست تستعادْ..

واحتمالاتِ طيورٍ سوفَ تأتي..

واحتمالاتِ كلامٍ.. سوف يأتي..

واحتمالاتٍ لعشقٍ ما أتى بعدُ...

ولكن سوفَ يأتي...

سوفَ يأتي...

سوفَ يأتي...

❊ ❊ ❊

بيروت محظيّتُكم.. بيروت حبيبتي

١

سامحينا..

إن تركناك تموتين وحيدهْ..

وتسّللنا إلى خارجِ الغرفةِ نبكي كجنودٍ هاربين

سامحينا..

إن رأينا دمكِ الورديَّ ينسابُ كأنهارِ العقيق

وتفرّجنا على فعلِ الزِّنا..

وبقينا ساكتينْ...

٢

آه.. كم كنا قبيحينَ، وكنا جبناء..

عندما بعناكِ، يا بيروتُ، في سوقِ الإماء

وحجزنا الشققَ الفخمةَ في حي (الإليزيه) وفي (مايفير)

لندن..

وغسلنا الحزنَ بالخمرةِ، والجنسِ، وقاعاتِ القمارْ

وتذكرنا – على مائدةِ الروليت، أخبارَ الديار

وافتقدنا زمنَ الدفلى بلبنان..

وعصرَ الجلنار..

وبكينا مثلما تبكي النساءْ..

٣

آه.. يا بيروتُ،

يا صاحبةَ القلبِ الذهبْ

سامحينا..

إن جعلناكِ وقوداً وحطبْ

للخلافاتِ التي تنهشُ من لحمِ العرب

منذ أن كان العربْ!!

٤

طمئنيني عنكِ..

يا صاحبةَ الوجهِ الحزينْ

كيفَ حالِ البحرِ؟

هل هم قتلوه برصاصِ القنصِ مثلَ الآخرين؟

كيف حالَ الحبِّ ؟

هل أصبحَ أيضاً لاجئاً..

بينَ ألوفِ اللاجئين..

كيف حالُ الشعر ؟

هل بَعْدَكِ - يا بيروت - من شعرٍ يُغَنَّى ؟

ذبحتنا هذه الحرب التي من غير مَعْنَى..

أفرغتنا من معانينا تماماً..

بعثرتنا في أقاصي الأرضِ..

منبوذينَ..

مسحوقينَ..

مرضَى..

مُتْعَبينَ..

جعلتْ منا- خلافاً للنبوءات..

يهوداً تائهينْ..

٥

هذه المرةَ.. لم يغدرْ بنا

جيشْ إسرائيل..

لكنا انتحرْنا..

٦

اصفحي، سيدتي بيروتُ، عنا

نحن لم نهجرْك مختارين، لكنا قَرِفْنا..

من مراحيضِ السياسهْ..

وملَلْنا..

من ملوكِ السيركِ.. والسيرك.. وغش اللاعبين

وكفرْنا..

بالدكاكينِ التي تملأ أرجاءَ المدينهْ..

وتبيع الناسَ حقداً وضغينهْ..

وبطاطينَ.. وسجاداً.. وبنزيناً مهرَّبْ..

آه يا سيدتي كم نتعذبْ..

عندما نقرأُ أن الشمسَ في بيروت، صارت كرةً في أرجـل المرتزقين..

٧

ما الذي نكتبُ، يا سيدتي؟

نحن محكوكون بالموتِ، إذا نحن صدقنا..

ثم محكومون بالموتِ إذا نحن كذبنا..

ما الذي نكتُب يا سيدتي ؟

نحن لا نملُك أن نحتج.

أو نصرخَ..

أو نبصقَ..

أو نكشفَ عن خيبتنا..

أو نتمنَّى..

أخرستنا هذه الحروبُ التي من غير معنَى..

٨

طلبوا منا بأن ندخلَ في مدرسةِ القتل..

وكلنا رفضْنا..

طلبوا أن نشطرَ الربَّ لنصفين..

ولكنا اختجلنا..

إننا نؤمنُ بالله..

لماذا جعلوا اللهَ هنا.. من غير معنى ؟

طلبوا منا أن نشهدَ ضدَّ الحبِّ..

لكن ما شهدْنا..

طلبوا منا.. بأن نشتمَ بيروتَ التي قمحاً.. وحبَّا

وحناناً.. أطعمتنا..

طلبوا..

أن نقطعَ الثديَ الذي من خيرِه، نحن رضَعنا..

فاعتذرْنا..

ووقفنا ضدَّ كل القاتلين

وبقينا مع لبنانَ سهولاً.. وجبالا..

وبقينا مع لبنانَ جنوباً.. وشمالا..

وبقينا مع لبنانَ صليبا.. وهلالا..

وبقينا مع لبنانَ الينابيعِ..

ولبنانَ العناقيدِ..

ولبنانَ الصبابهْ..

وبقينا مع لبنانَ الذي علمنا الشِّعْرَ..

وأهدانا الكتابةْ

٩

آه يا سيدتي بيروتُ..

لو جاءَ السلامْ..

ورجعنا، كالعصافيرِ التي ماتت من الغربةِ والبردِ..

لكي تبحثَ عن أعشاشِنا بين الحطامْ..

ولكي نبحثَ عن خمسين ألفاً..

قُتلوا من غير معنى..

ولكي نبحثَ عن أهلٍ وأحبابٍ لنا

ذهبوا من غيرِ معنى..

وبيوتٍ.. وحقولٍ.. وأراجيحَ.. وأطفالٍ..

وألعابٍ.. وأقلامٍ.. وكراساتِ رسمٍ..

أُحرقت من غيرِ معنى..

آه يا سيدتي بيروتُ..

لو جاءَ السلامْ

ورجعنا..

كطيورِ البحرِ، مذبوحين شَوقاً وحنينَا

وبنا شوق إلى (منقوشةِ الزعتر).. والليلِ.. ومن كـانوا

يبيعون عقودَ الياسمين

فمن الجائِز، يا بيروتُ، أن لا تعرفينا..

قد تغيرتِ كثيرا..

وتغيرنا كثيرا...

وكبرنا نحنُ - في عامين - آلافَ السنين

١٠

احتملنا نفينا عشرين شهرا..

وشربنا دمعَنا عشرين شهرا..

وبحثنا في زوايا الأرضِ عن عشقٍ جديدٍ غيرَ أنا ما عَشقنا..

وشربنا الخمرَ من كلِّ الدوالي..

غير أنا ما سكرنا..

وبحثنا عن بديلٍ لك،

يا أعظمَ بيروتَ..

ويا أطيبَ بيروتَ..

ويا أطهرَ بيروتَ..

ولكنْ ما وجدنا..

ورجعنا..

نلثمُ الأرضَ التي أحجارُها تكتبُ شعرا..

والتي أشجارُها تكتب شعرا..

وأخذناك إلى الصدرِ..

حقولاً.. وعصافيرَ.. وكورنيشاً.. وبَحْرَا..

وصرخنا كالمجانينِ على سطحِ السفينهْ :

أنتَ يا بيروتُ..

ولا بيروتُ أخرَى..

❊ ❊ ❊

إلى بيروت الأنثى مع الاعتذار

كـــانَ لبنـــانُ لكـــم مروحـــةً..

تنـــشرَ الألـــوانَ، والظـــلَّ الظلـــيلا

كـــم هـــربتم مـــن صـــحاراكُم إليـــه..

تطلبـــون الـــماءَ.. والوجـــهَ الجمـــيلا..

واغتـــسلتم بنـــدَى غاباتِـــه

واختبـــأتم تحـــتَ جفنيْـــه طـــويلا

وتـــسلقتم علـــى أشـــجارِه

وســـرحتم في براريـــهِ وعـــولا

وشـــربتم مـــن خوابيـــه نَبيـــذاً

وســـمعتم مـــن شـــوادِيه هـــديلا

وقطفـــتم مـــن روابيـــه الخزامَـــى

والعيـــونَ الخـــضرَ.. والخـــدَّ الأســـيلا..

واقتنيـــــــتم شمـــــــسَه لؤلــــــــؤةً

وركبـــتم أنجـــمَ الليـــلِ خيـــولا..

إنـــــه علمكُـــــم أن تعــــشقوا..

لم يكـــنْ لبنـــانُ في العـــشقِ بخـــيلا..

إنـــــه علمكـــــمْ أن تقـــــرأوا..

هـــل تقولـــون لـــه : «شُـــكراً جـــزيلا»..

آه يـــا عـــشاقَ بيـــروتَ القـــدامى

هـــل وجـــدتم بعـــدَ بيـــروتَ البـــديلا ؟

إن بيـــروت هـــي الأنثَـــى التـــي..

تمـــنح الخـــصبَ، وتعطينـــا الفـــصولا..

إن يمـــتْ لبنـــانُ.. مُـــتُّم معـــه

كـــلُّ مـــن يقتلـــه.. كـــان القتـــيلا..

كـــلُّ قـــبح فيـــه، قـــبح فـــيكم

فأعيـــدوه.. كـــما كـــانَ جمـــيلا..

إن كونـــاً لـــيس لبنـــانُ بـــه

ســـوف يبقـــى عـــدماً أو مـــستحيلا..

كـــلُّ مـــا يطلبـــه لبنـــانُ مـــنكمْ

أن تُحبـــوه.. تحبـــوه قلـــيلا..

***

بيروت تحترق.. وأحبُّكِ

١

عندما كانتْ بيروتُ تحترقْ..

وكان رجالُ الإطفاءِ يرشون ثوبَها الأحمرَ بالماء

ويحاولون إنقاذَ العصافيرِ المحبوسة..

في قرميد بيوتِها الورديهْ..

كنتَ أركضَ في الشوارعِ حافياً

على الجمرِ المشتعلِ، والأعمدةِ المتساقطة ونثاراتِ

الزجاجِ المكسور

باحثاً عن وجهِك المُحاصرِ كحمامة..

بين ألسنةِ اللهيب..

كنت أريدُ أن أنقذَ بأي ثمنْ

بيروتَ الثانيهْ..

بيروت التي تخصُّك.. وتخصني..

بيروتَ التي حبلتْ بنا في وقتٍ واحد..

وأرضعتنا من ثديٍ واحد..

وأرسلتنا إلى مدرسةِ البحر..

حيث تعلمنا من الأسماكِ الصغيرهْ

أولَ دروسِ السفر..

وأولَ دروسِ الحبِّ..

بيروتَ..

التي كنا نحملُها معنا في حقائِبنا المدرسيهْ

ونضعها في أرغفةِ الخبز..

وحلاوةِ السمسِم..

وأكوازِ الذرة..

والتي كنا نسميها..

في ساعاتِ عشقِنا الكبير..

(بيروتَك)..

و(بيروتي)..

٢

عندما كان الوطنَ يهربُ من الوطن..

وكان الأطفالُ ينامون فوقَ ألعابهم

في مطارِ بيروتَ الدولي..

بينما آباؤهُم يزنون الحقائب الملأى بالدموع

ويضطرون إلى دفعِ أجرة..

عن كلِّ كيلو زائد من الدمعِ..

وعن كلِّ كيلو زائد من الحزن..

عندما كان الوطنُ يضعُ يديه على وجهِه..

ويبكي..

وكانت الغيومُ الخريفية..

القادمةُ من جزرِ اليونان..

تخافَ أن تقتربَ من سواحلَ لبنان

مخافة أن تصابَ برصاص قناص..

عندما كانت مصابيحُ الطرقات

ترتعشُ من الخوف..

ومقاهي الرصيف..

تطوي مظلاتِها وتهاجر..

وطيورُ البحرِ، تحملُ أولادهَا على أكتافِها وترحل..

عندما كان الوطنُ يَشنقُ الوطن

كنت على مسافةِ أمتارٍ من الجريمهْ

أراقب القتلهْ..

وهم يضاجعونَ بيروتَ كجاريهْ..

ويتنابونَ عليها..

واحداً..

واحداً..

وفقاً لبروتوكولاتِ القبيلهْ

والامتيازاتِ العائليهْ..

والرتبِ العسكريهْ..

لم أكنْ الشاهدَ الوحيدَ الذي رأى ألوفَ السكاكين

وهي تلتمعَ تحتَ الشمس..

ورأى ألوفَ المقنَّعين

وهم يرقصون رقصة (التام - تام)

حولَ جسدِ امرأةٍ تحترق..

ولكنني كنتُ الشاعرَ الوحيد

الذي أدركَ..

لماذا غيَّرَ بحرُ بيروتَ اسمه..

من البحرِ الأبيض المتوسط..

إلى (البحرِ الأحمر المتوسط)!!.

٣

عندما كانت بيروتُ تحترقْ..

وكان كلٌّ واحدٍ..

يفكر في إنقاذِ ما تبقى له من ثروةٍ شخصيه

تذكرتُ - فجأة -

أنك لا تزالين حبيبتي..

وأنك ثروتي الكبرى التي لم أصرِّحْ عنها..

وأنني مضطر..

- ولو كَلفني ذلك حياتي-

لإنقاذِ تراثِنا المشترك

وممتلكاتِنا العاطفيهْ..

في هذه العاصمة الرائعهْ..

التي كانت ذاتَ يومْ..

الصندوقَ السحريَّ الذي خبئنا فيه..

كلَّ مدخراتِنا الصغيرهْ..

من رسومٍ سريةٍ لي.. ولك..

لم يَرَها أحدْ..

وتخطيطاتٍ بالقلمِ الرصاصْ

لقصائدَ كتبتُها لك..

ولم يطَّلعْ عليها أحدْ..

وكُتبٍ..

ولوحاتٍ..

وأسطواناتٍ..

وصحونِ سيراميكْ..

وبطاقاتٍ بريديهْ..

وعَلَّاقاتِ مفاتيحْ..

مكتوبٌ عليها بكلِّ لغاتِ العالمِ كلمة :

(أُحِبُّك)..

وعرائسَ فولكلورية حملتِها معك.. تذكارات محبهْ

من اليونان، والبلقانْ..

ومراكش، وفلورنسه..

وسانغافورة، وتايلاند..

وشيراز، ونَيْنَوَى

وأزبكستان السوفييتيهْ..

وشال من الحريرِ الأحمر..

أهديتهَ إليك، يومَ عدتُ من إسبانيا.

وكنتَ كلما وضعتِه على كتفيْكِ..

فهمتُ..

لماذا قاتلَ طارقُ بن زيادْ..

من أجلِ دخولِ الأندلس..

ولماذا قاتلتُ أنا..

ولا أزال أقاتلْ..

حتى يسمحَ لسُفني

بدخولِ مياهِ عينيْك الإقليميهْ..

٤

عندما كانتْ بيروتُ..

تتساقطُ كشمعدانٍ بيزنطي..

مطعَّمٍ بالذهبِ والبلاتين..

وعندما كانت الجموعُ تُعَبِّرُ عن حزنِها..

بشكلٍ واحدْ..

وتبكي بشكلٍ واحدْ

كنت أفتشُ عن حُزني الخصوصي

وعن امرأةٍ لا شبيهَ لها..

ومدينةٍ لا شبيهَ لها..

وقصائدَ لا شبيهَ لها..

في كلِّ ما كتبه الرجالُ في حبِّ النساء..

عندما كانت النساءْ..

يقَسنَ المأساةَ بعددِ أمتار القماش المحترق..

وبقيمةِ الحقائبِ، والمعاطفِ، والعقود..

التي كنَّ يحلمن باقتنائِها..

وعندما كان الرجالُ يقيسون خسارتهم

بما بقيَ لهم من أرصدةٍ في المصارف..

كنت أنا جالساً على حَجرٍ دائري كدمْعَهْ..

أقيسُ خسارتي..

بعددِ فناجين القهوةِ التي كان يمكن أن نحتيسها..

وعددِ الأسئلةِ التي كان يمكنُ أن تطرحَها

يدايَ على يديْكِ..

لو لم تحترقْ بيروتُ..

كنت أقيسُ خسارتي،

بألوفِ الكلماتِ التي كان يمكنُ أن نقولَها..

وعشراتِ السفنِ والقطارات..

التي كان يمكن أن نسافر عليها..

ومئاتِ الأحلامِ التي كان يمكن أن نحققَها..

لو لم تحترقْ بيروتْ..

كنت أقيسُ خسارتي..

بكميةِ المطرِ التي كان يمكن أن يسقط علينا..

فنجابِهه..
بجسدين محشورَينْ في معطفٍ واحد..
وبرأسٍ مائلةٍ على رأس..
وذراعٍ مسافرةٍ حولَ خاصِرَهْ..
لو لم تحترقْ بيروتْ..

٥

عندما كانت بيروتُ تغرقْ..
كسفينةٍ مطعونةٍ في خاصرتِها..
وكان المسافرونَ..
يرمونَ بأنفسِهم في البحْر..
ويتعلقون بأولِ خشبةٍ يصادفونها
كنت أبحثُ في دهاليزِ عقلي الباطن..

عنك..

وأصعدُ.. وأهبطُ.. السلالمَ الحلزونيهْ

بحثاً عن مقصورتِك الملكيهْ..

لم يكنْ يهمني..

أن تكوني نائمةً.. أو صاحيهْ..

لم يكن يهمني..

أن تكوني عاريةً.. أو نصفَ عاريهْ..

لم يكن يهمني أن أعرفَ..

من يشاركُك الفراش..

هذه كلُّها أشياء هامشيهْ

أما القضيةُ الكبرى..

فهي اكتشافي..

أنني لا أزالُ أحبُّك..

وأنك لا تزالين تعومِين كزهرةِ لوتس

على مياهِ ذاكرتي..

وتنبتينَ بينَ أصابعي،

كما ينبتُ العشبُ الطازج..

بين حجارةِ كنيسةٍ تاريخيهْ..

لم يكن يهمني من تحبينَ الآن..

وبماذا تفكرينَ..

فهذه أمور نتكلمُ عنها فيما بعد..

فالقضيةُ المصيريةُ الآن..

هي أنني أحبُّكِ..

وأعتبرُ نفسي مسؤولاً عن حمايةِ أجملِ بنفسجتين

في العالمِ..

أنتِ.. وبيروتْ..

٦

لا تؤاخذيني..

إذا اقتحمتُ بابَ غرفتِك دونَ موعدٍ سابق

ضعي أيةَ خرقةٍ تصادفينها على جسدِك..

ولا تسأليني لماذا ؟

إن بيروتَ تحترقُ في الخارج..

إن (بيروتنا) تحترقُ في الخارج..

وأنا – على رغمِ كلِّ حماقاتِك وكلِّ إساءاتك الماضيهْ

لا أزال أحبُّك..

وها أنذا قد جئتُ..

لكي أحملك كقطةٍ صغيرةٍ على كتفي..

وأخرجَ بك..

من سفينة النار، والموتِ، والجنونْ..

فأنا ضدُّ احتراقِ القططِ الجميلهْ..

والعيونِ الجميلهْ..

والمدنِ الجميلهْ..

* * *

المحتويات

رقم الإيداع: ١٧٠٨٧ / ٢٠١١